

الوحدة في القصيدة الجاهلية

د. عبد النبي محمد علي ❖

Abstract

The present paper delves into pre-Islamic poetic era. Poetic unity has been a subject of conflict throughout centuries. Researchers divided into two opinions, the first supported the existence of unity in pre-Islamic poems while the second believed that multiplicity has affected poetic unity throughout Arabic Poems literature.

Poetic biometry and artistic unity are terminologies used to identify the ability of a poet in his remarkability of a work. Total unity was introduced to describe the passionate unity of a poem. It is concluded that an organic unity of a poem had a Unification Structure that is essential.

مقدمة :

مما لا نزاع فيه أن الموضوعات تتعدد في القصيدة الجاهلية، ولكن الذي آثار النزاع هو أثر هذا التعدد في وحدة القصيدة؛ إذ انقسم الباحثون حيال هذه الوحدة إلى قسمين : فريق يؤمن بوجود الوحدة في القصيدة الجاهلية، وفريق يرى أن تعدد الموضوعات قد أدخل بوحدة القصيدة.

فالفريق الأول المؤمن بوجود هذه الوحدة اختلف أفرادها بعض الاختلاف في نوعية هذه الوحدة؛ فمنهم من يسميها (الوحدة المعنوية) كالدكتور طه حسين، الذي وصف ادعاء تفكك القصيدة العربية القديمة واقتصار وحدتها على الوزن والقافية دون المعنى بأنه أسطورة من هذه الأساطير التي أنشأها الافتتان بالأدب الأوروبي الحديث، وضرب المثل على التئام أجزاء القصيدة العربية وحسن تسيقها بمعلقة لبيد. وقال: إنها بناء محكم متقن لا تغير منه شيئاً إلا إذا أفسدت البناء كله ونقضته نقضاً^(١).

ومنهم من يسميها (الوحدة الحيوية) كالدكتور محمد النويهي الذي يرى أن وحدة القصيدة تتمثل في مقدرة الشاعر على التعبير عن تجارب الحياة المختلفة

❖ قسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة النيلين.

(١) انظر (حديث الأربعاء) ١/٣٠ - ٣٣.

أو المتناقضة دون أن يسقط في الكذب الفني، فكل أقسام القصيدة تكون نابعة نبوعاً صادقاً مخلصاً من نفسية قائلها، مهما يكن في هذه النفسية من تبدل المزاج وتناقض الغايات.

وفهمنا لحالته الانفعالية هو المفتاح الذي يدخلنا في مختلف أقسام القصيدة، وتعمقنا لها هو الذي سيحل لنا متناقضاتها العديدة، فيؤلف بينها في وحدة حيوية قوية؛ إذ يجلي لنا عاطفته المسيطرة المتحدية لكل ما تلقاه من هموم ^(١) . ومنهم من يسميها (الوحدة الفنية) كالدكتور أحمد بدوي ^(٢) ومنهم من يسميها (الوحدة التامة) كالدكتور سيد نوفل الذي قال عن المسيب بن علي : (الوحدة التامة تبدو في سائر قصائده، بل يبدو بعضها قصة محكمة تدور حول موضوع واحد وان تنوعت جزئياته ^(٣) . ومنهم من يسميها بـ (الوحدة الشعرية) كالدكتور محمد محمد الكومي الذي يرى أن القصيدة الجاهلية تسودها كلها عاطفة واحدة هي عاطفة الصراع بين الإنسان والحياة ^(٤) والدكتور محمد نايل بعد أن بين أن أصول وحدة القصيدة ثلاثة هي : رعاية الترابط والتلازم بين عناصرها من الأفكار والأجزاء والصور، والتجانس في وحدة الروح وحرارة المشاعر، وتجانس الصياغة الفنية في أسلوب القصيدة، وأشار إلى أن ذلك متوافر في القصيدة القديمة، قال: (هذه هي الأصول الثلاثة التي تتم بها الوحدة وتعلو بها القصيدة، ويستقيم بها طبع الشعر، وسمها بعد ذلك ما شئت: سم تجانس الأفكار والعناصر بالوحدة الفكرية، وسم تجانس المشاعر في قوة بالوحدة الشعرية، وسم تجانس الصياغة بالوحدة الفنية، أو سمها مجتمعة بهذا الاسم الأخير (الوحدة الفنية) ^(٥)).

إذن كل هؤلاء الباحثين - ومعهم آخرون - يؤمنون بأن القصيدة الجاهلية فيها وحدة، وإن تعدد الموضوعات فيها لا يناقض هذه الوحدة، وهو رأي سليم، إذ الوحدة ركن أساس في العمل الأدبي وعنصر مهم من عناصر التجربة الشعرية، فالحكم بخلو القصيدة الجاهلية منها إسقاط للشعر الجاهلي كله، وهذا أمر لا تقبله الحقيقة والواقع وإن قبله بعض الناس وتجراً عليه، وهو الفريق الآخر من الباحثين، الذي يؤمن بأن القصيدة الجاهلية خالية من الوحدة؛ لأن هذه الوحدة

(١) انظر محمد النويهي (الشعر الجاهلي منهج في تقويمه) ٤٣٥/٢ - ٤٥٢ .

(٢) أحمد أحمد بدوي (أسس النقد الأدبي عند العرب) ص ٣١٩ - ٣٢٣ .

(٣) سيد نوفل (شعر الطبيعة في الأدب العربي) ص ٨٠ .

(٤) أنظر (الصراع بين الإنسان والطبيعة في الشعر الجاهلي) ص ٤٥٠ - ٤٥٢ .

(٥) محمد نايل (اتجاهات وآراء في النقد الحديث) ص ٥٢ - ٦٣ .

عنده لابد أن تكون (وحدة عضوية) والوحدة العضوية من أول أركانها (وحدة الموضوع) وأبرز هؤلاء العضويين الدكتوران: محمد غنيمي هلال، وشوقي ضيف، فغنيمي يقول: (سبق أن تحدثنا عن الوحدة العضوية كما هي عند أرسطو، وبيننا أن أرسطو كان لا يقصد سوى الوحدة العضوية في المسرحيات والملاحم... ووحدة القصيدة العضوية متأثرة إلى مدى بعيد - في إدراكها وتطبيقها - بنظرة أرسطو إلى وحدة الملحمة والمسرحية، ونقصد بالوحدة العضوية في القصيدة وحدة الموضوع ووحدة المشاعر التي يثيرها الموضوع، وما يستلزم ذلك من ترتيب الأفكار والصور ترتيباً تتقدم به القصيدة شيئاً فشيئاً، حتى تنتهي إلى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور، على أن تكون أجزاء القصيدة كالبنية الحية لكل جزء وظيفة فيها، ويؤدي بعضها إلى بعض عن طريق التسلسل في التفكير والمشاعر... فليست للقصيدة الجاهلية وحدة عضوية في شكل من الأشكال، لأنه لا صلة فكرية بين أجزائها، فالوحدة فيها خارجية لا رباط فيها إلا من ناحية خيال الجاهلي وحالته النفسية في وصف الرحلة لمذح الممدوح. وكان لهذا الرباط الواهي مبرر من المبررات في العصر الجاهلي، ثم صار تقليداً على مر العصور^(١) ولعل الدكتور غنيمي هلال كان أرفق بالقصيدة الجاهلية بعض الشيء، فبعد أن نفى الصلة الفكرية بين أجزائها، جعل لها وحدة خارجية ذات رباط واه، ولكن هذا الرباط الواهي لا يوجد عند الدكتور شوقي ضيف، بل لا يوجد أي رباط، قال: (ومن الحق أن القصيدة العربية لم تكن تعرف هذه الوحدة العضوية معرفة واضحة قبل عصرنا الحديث إلا نادراً، وربما كان مرجع ذلك إلى تقييد شعرائنا في العصور الوسطى بنموذجها الذي وضعه لها الشعر الجاهلي، حيث نجد القصيدة متحفاً لموضوعات مختلفة لا تربط بينها أي رابطة قريبة)^(٢) وعلى هذا النحو تألفت القصيدة الجاهلية من أبيات متجاورة متأثرة كأبيات الحي وخيامه، فكل بيت له حياته واستقلاله، وكل بيت وحدة قائمة بذاتها، وقلماً ظهرت صلة وثيقة بين بيت سابق ولاحق، وبذلك فقدت تلك القصيدة وحدتها لا من حيث الموضوعات المتباينة التي تنتظم فيها فحسب، بل أيضاً من حيث الأبيات في الموضوع الواحد، فهي تتجاوز مستقلاً بعضها عن بعض... وهكذا دار النقد على وحدة البيت، فلم تعرف وحدة القصيدة إلا في الندرة، وقد عدوا اتصال بيت بما قبله أو بما بعده عيباً يزري بالشعر وصاحبه وسموه التضمين)^(٣). وهكذا نفى

(١) محمد غنيمي هلال (النقد الأدبي الحديث) ص ٢٣٧ .

(٢) شوقي ضيف (في النقد الأدبي) ص ١٥٤ .

(٣) المرجع السابق، ص ١٥٥ .

الدكتور شوقي ضيف عن القصيدة الجاهلية لا الوحدة العضوية فقط، وإنما أي وحدة أو تناسق . وواضح من كلام الدكتور غنيمي هلال أن (الوحدة العضوية) مأثورة عن أرسو، وأن أرسو كان يقصرها على المسرحيات والملاحم، فلماذا اختارها النقد الحديث للقصيدة الغنائية التي لا تحتاج إليها ولا تلائمها، ولا يمكن أن تطبق عليها إلا إذا كانت قصيدة في شكل قصة ؟ فهذه الوحدة إذا أمكن تصورها في القصائد ذوات الموضوع الذي له بدء ووسط ونهاية، فلا يمكن تصورها في القصيدة الغنائية التي تقوم على تداعي المشاعر والخواطر ومن غير نسق وضعي محدود ^(١) إن القصيدة في الشعر الغنائي لا ينبغي أن تدعن لهذه الوحدة التي يفرضها عليها هؤلاء العضويون، وإذا كان الشعر الغنائي هو - كما يقولون - تصوير مشاعر الإنسان نحو الطبيعة ومجاليها، والحياة وأسرارها والأيام وأحداثها والمجتمعات وأحوالها - فان شيئاً من ذلك لا يعرف قانون الوحدة العضوية، حتى نلزم هذا الشعر بمحاكاة شيء غير موجود، إذ أن الحياة قد وضعت الماء بجوار اليابس والمر إلى جوار الحلو، والورد مع الشوك والحيوان مع الإنسان، بل ربطت الأرض بالسماء وشعاع الشمس بالنبات... وهكذا اتسعت لكل المفارقات وجمعتها على نسق ونظام، فماذا يضير الشعر أن يصور ما يرى ؟ ^(٢) ووحدة الموضوع التي آمن بها العضويون وجعلوها أقوى سبب لنفي الوحدة عن القصيدة الجاهلية، وعدوها العمود الفقري في بناء الوحدة العضوية - لا يمكن أن تتوافر في القصيدة الطويلة، كما حكم بذلك أحد الباحثين قائلاً : (فليس معنى الوحدة (العضوية) - كما اعتقد بعض من تناولوا هذه المسألة - أن تحتوي القصيدة على موضوع واحد؛ لأنه ما من قصيدة ذات طول تستطيع أن تنحصر في موضوع واحد، لا في الأدب العربي ولا في الأدب الغربي إنما يتحقق ذلك في القصيدة ذات العدد القليل من الأبيات، لكن معناها أن يكون بين موضوعاتها انسجام في العاطفة المسيطر ^(٣) ومعنى هذا الكلام أن هؤلاء العضويين لم يفهموا الوحدة العضوية حق الفهم .

بل وهناك أيضاً من هدم ركناً ثانياً من أركانها - وهو ادعاء أن أبيات القصيدة تسير في اتجاه معين لا يمكن معه تقديم بعضها على بعض، أو وضع بيت في غير محله وإلا فسدت القصيدة - قال الدكتور محمد مندور ^(٤) (وعلى ذلك نستطيع

(١) محمد مندور (النقد والنقاد المعاصرون) ص ١١٢ .

(٢) محمد نايل (اتجاهات وآراء في النقد الحديث) ص ٥٤ - ٥٥ .

(٣) محمد النويهي (الشعر الجاهلي منهج في تقويمه ...) ص ٤٣٥ - ٤٣٦ .

(٤) (النقد والنقاد المعاصرون)، ص ١١٤ - ١١٨ .

أن نتبين ما في بعض المقاييس التي فرعها الأستاذ العقاد عن هذا الأساس من تعسف غير مقبول، مثل زعمه أن القصيدة السليمة البناء الممتعة بالوحدة لا يمكن فيها تقديم بيت على غيره. وحكمه على قصيدة مثل رثاء شوقي لمصطفى كامل بأنها مفككة البناء لمجرد أن العقاد قد استطاع ترتيب أبياتها على نحو جديد دون أن يبدو عليها التخریب ... ونحن لا نريد أن نناقش الأستاذ العقاد في سلامة الترتيب الذي اصطنعه أو عدم سلامته، ولكننا نسلم له بما أراد لنسأله بعد ذلك: هل من الممكن أن يستقيم هذا المقياس في أي شعر غنائي ينتظم مشاعر وخواطر متناثرة، حتى ولو كان هذا الشعر هو شعر العقاد نفسه صاحب هذا المقياس المتعسف؟ هناك قصيدة من قصائد العقاد أتاني بها أحد طلبتي وقد فعل بها ما فعله العقاد برثاء شوقي لمصطفى كامل فأعاد ترتيب أبياتها، ووضع بجوار كل بيت رقم ترتيبه في القصيدة الأصلية، التي يرثي فيها العقاد المرحوم حسن الحكيم من أدباء قنا المعروفين بالورع، وذلك في ديوانه (هدية الكروان) الصادر سنة ١٩٣٣، مجتزئين فيها - خشية الإطالة - بهذه الأبيات :

- | | |
|------------------------------------|-----------------------------|
| ١- رفيق الصبا المعسول أبكيك والصبا | وما كان أغلى ما بكيت وأطيبا |
| ٩- عجيب لعمرى موت كل محبب | إلينا وقد كان التعجب أعجبا |
| ١٣- عهدتك في شرخ الصبا ناضر الصبا | وفاجأني الناعي فأجفلت مكذبا |
| ١٠- أمن هو في ذكرى فتي العمر ينطوي | كما طوت الأسقام شيخا معذبا |
| ٧- ألقاك؟ بل هيهات قد حالت المنى | فأقرب منها أن أصافح كوكبا |
- الخ .

فهذه الأبيات من قصيدة رثاء - أيضاً - كقصيدة شوقي، وقد أعاد الطالب ترتيب هذا العدد من الأبيات التي تقرأها فتستقيم القراءة دون تعثر أو إحساس بتخلخل وتقديم وتأخير، لأن القصيدة كلها مبنية على خواطر وأحاسيس متناثرة يمكن ترتيبها على أوضاع متباينة، بل لقد استطاع الطالب المذكور أن يأتيني بعدة أبيات أعاد هو نفسه تأليفها من سطور مختلفة تخيرها من قصيدة العقاد المذكورة واستقام لها الفهم، ونحن لا نريد أن نتعسف فنرمي قصيدة العقاد هذه بالتفكك وفقدان الوحدة العضوية ... ولكننا نقول : إن المطالبة بالوحدة العضوية لا تكون إلا في فنون الأدب الموضوعي، كفن المسرحية وفن القصة، أما في شعر القصائد فلا ينبغي أن يطالب بها ... وأما الشعر الغنائي الخالص، أي شعر الوجدان فمن أكبر التعسف مطالبة الشاعر بمثل تلك الوحدة التي لا تقبل تقديما أو تأخيرا في نسق أبياتها).

وزيادة على عدم لزوم الوحدة العضوية في القصيدة الغنائية، فإن هذه الوحدة مقياس غربي حديث من المقاييس النقدية التي تختلف مع أدبنا العربي في أمور كثيرة بعضها جذري . وقد حذر بعض الباحثين المنصفين من تطبيق مثل هذه المقاييس على شعرنا القديم، وعدوا تطبيقها عليه نوعاً من عدم الإنصاف والتعسف^(١)، وخطراً على البحث الفني، ومباعدة بين الفن وتاريخه، من ناحية، وبين ماضيه وحاضره من ناحية أخرى^(٢)، فتطبيقها المتعسف عليه لن ينتج خيراً، بل ينتج عنه ضرر كبير محقق^(٣). أضف إلى ذلك أن (الوحدة العضوية) مقياس لم يلزم به الشعر الغربي نفسه، وإياه من عهد أرسطو إلى عهد سارتر^(٤).

وإذا كانت القصيدة الجاهلية خالية من الوحدة العضوية، فليس معنى هذا أنها مفككة لا توجد أي رابطة بين أجزائها، فهذا اتهام باطل فيه ظلم بالغ وحيث كبير، فالقصيدة الجاهلية تسودها وحدة عامة تربط بين موضوعاتها ربطاً محكماً. وقد أشار كثير من الباحثين إلى هذه الوحدة كما مر . أضف إلى ذلك أن تعدد الموضوعات لا بد منه في القصيدة الطويلة، كما أشار إلى ذلك الدكتور النويهى. والتجنى الأكبر على الشعر الجاهلي هو اتهامه - زيادة على ذلك - بفقدان الوحدة بين الأبيات في الموضوع الواحد، مع أن الواقع يكذب هذا الاتهام، فها هي أماننا القطع الكثيرة التي وصف بها الحيوان، فأين هذا التنافر بين أبياتها حتى بدت متناثرة كأبيات الحي تتجاوز ولا تتزاور ؟ أليس أغلبها قصصاً قصيرة تتوافر فيها الوحدة العضوية المدعاة لا مجرد وحدة ؟

ثم ما هذه الدعوى العريضة التي تزعم أن البيت هو وحدة النقد عند النقاد القدامى لا وحدة القصيدة ؟ إن ما أثر على كثير من النقاد القدامى يكذب هذه الدعوى ويثبت ضدها تماماً، فالجاحظ يقول : أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغاً واحداً، وسبك سبكاً واحداً، فهو يجرى على اللسان كما يجرى الدهان، وأنشد الجاحظ قال : أنشدني أبو العاص قال : أنشدني خلف : وبعض قريض القوم أبناء علة يكذ لسان الناطق المتحفظ وأنشد عن أبي البيداء الرياحي :

وشعر كبعر الكباش فرق بينه
لسان دعى في القريض دخيل

(١) أحمد الشايب (أصول النقد الأدبي) ، ص ١٧٨ .

(٢) سيد نوفل (شعر الطبيعة في الأدب العربي) ، ص ١٧ .

(٣) (الشعر الجاهلي ...) ٢٢/١ .

(٤) محمد نايل (اتجاهات وآراء في النقد الحديث) ، ص ٥٧ .

واستحسن أن يكون البيت بأسره كأنه لفظة واحدة لخفته وسهولته، واللفظة كأنها حرف واحد ^(١).

وقال ابن رشيق نقلا عن الحاتمي : من حكم النسيب الذي يفتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجا بما بعده من مدح أو ذم متصلا به، غير منفصل عنه، فإن القصيدة مثلها مثل خلق الانسان في اتصال بعض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد منها عن الآخر وبأينه في صحة التركيب غادر الجسم عاهة تتخون محاسنه، وتغفى معالم جماله، ووجد حذاق الشعراء وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون من مثل هذه الحالة احتراسا يحميهم من شوائب النقصان، ويقف بهم على محجة الإحسان ^(٢).

وقال ابن طباطبا : "وينبغي للشاعر أن يتأمل تأليف شعره، وتنسيق أبياته، ويقف على حسن تجاورها أو قبحه، فيلائم بينها، لتتنظم له معانيها، ويتصل كلامه فيها، ولا يجعل ما قد ابتداء وصفه وبين تمامه فصلا من حشو ليس من جنس ما هو فيه، فينسى السامع المعنى الذي يسوق القول إليه ^(٣) . وينص عمود الشعر- كما شرحه المرزوقي ^(٤) - على التحام أجزاء النظم والتثامها، حتى يوشك أن تكون القصيدة منه كالبيت، والبيت كالكلمة، تسالما لأجزائه وتقاربا" وقال أحد هؤلاء القائلين بوحدة البيت : "ولسنا ننكر أن هناك من ينظر إلى القصيدة من حيث هي كل، فالقاضي الجرجاني يقول : " إن الشاعر الحاذق يجتهد في تحسين الاستهلال والتخلص وبعدهما الخاتمة، فإنها المواقف التي تستعطف أسماع الحضور وتستميلهم إلى الإصغاء، ولم تكن الأوائل تخصصها بفضل مراعاة ... فهذا معناه أن الجرجاني كان ينظر إلى القصيدة من حيث هي أجزاء متماسكة لها بداية ونهاية ^(٥) وابوهلال العسكري يرى أن الكلام إذا انقطعت أجزاؤه ولم تتصل فصوله ذهب رونقه ^(٦).

أليس هؤلاء هم أغلب النقاد القدامى، وقد انصب كلامهم على وحدة القصيدة لا وحدة البيت كما زعم الزاعمون ؟ إنهم تكلموا عن وحدة القصيدة وأهتموا بها ولم يكن إهتمامهم بها نادرا كما قالوا . أما كون ابن رشيق وابن طباطبا لم يفهما

(١) العمدة ٢٥٧/١ .

(٢) المرجع السابق، ١١٧ .

(٣) (عيار الشعر) ، ص ٢٥ .

(٤) انظر مقدمة المرزوقي لشرح ديوان الحماسة ، ص ٩ - ١١ .

(٥) عزالدین إسماعیل (الأسس الجمالية في النقد العربي) ، ص ٣٦٥ .

(٦) أحمد بدوي (أسس النقد الأدبي عند العرب) ، ص ٣٢٣ .

الوحدة العضوية الماثورة عن أرسطو، وأن العرب تأثروا بفكرة الوحدة العضوية ولكن على نحو خاص^(١) - فهذا لا يهم لأن الوحدة العضوية نفسها غير مهمة وغير لازمة في الشعر الغنائي كما عرفنا .

أما التضمين فعلى الرغم من أن الدكتور شوقي ضيف قد أشار هنا إلى كراهية النقاد القدامى له، وعد ذلك من مظاهر عدم اهتمامهم بوحدة القصيدة - نجده في مكان آخر قد تابعهم وعده عيباً على الأعشى الذي يكثر منه، وذلك بقوله : (وهذا التضمين في شعره أكثر من أن نمثل له، فليرجع إليه من أراد، والمهم أنه يدل على انفكاك التعبير عنده، فهو لا يتم البيت بل يتمه في بيت ثان، أو أبيات^(٢) .

ومع أن الدكتور محمد نايل قد سَوَّغ عيب النقاد القدامى للتضمين تسويفاً حسناً^(٣)، فإن لنا رأياً فيه، هو أن هذا التضمين قد كرهه النقاد القدامى، ولكن لم يكرهه الشعراء الجاهليون كما ادعى بعض الباحثين^(٤) فقد وردت جملة صالحة منه في الشعر الجاهلي، مما يدل على أنه لم يكن مكروهاً عندهم، بل قد نجده في أروع الصور التشبيهية وأجملها، كما نرى ذلك عند المثقب العبدى وبشامة وكعب بن زهير في تشبيهه يدي الناقة المسرعتين، ومثال لذلك نورد قول كعب بن زهير^(٥) :

كأن أوب ذراعها إذا عرقت	وقد تلفح بالقدر العسا قـ
وقال للقوم حاديهم وقد جعلت	ورق الجنادب يركضن الحصا قـ
شدَّ النهار ذراعاً عيطل نصف	قامت فجار بها نكد مـ
نواحة برخوة الضبعين ليس لها	لما نعى بكرها الناعون معـ

يلاحظ هنا أن كعباً قد جاء بالتضمين، حيث ذكر اسم "كأن" في البيت الأول، والمشبه به (خبر كأن) في البيت الثالث. وزهير في هذا التشبيه متابع للمثقب العبدى، ولكن زهيراً زاده تفصيلاً وعمقاً، ويتضح ذلك عندما نرى بيتي المثقب العبدى الآتيين^(٥):

كأنما أوب يديها إلى حيزومها	فوق حصى الغد فـ
نوح ابنة الجون على هالك	تدبه رافعة المجلد

(١) انظر (النقد الأدبي الحديث)، ص ٢٠٢ - ٢٠٥ .

(٢) (العصر الجاهلي)، ص ٣٦٥ .

(٣) عبدالعظيم قناوي (الوصف في الشعر العربي)، ص ٢٢٣ .

(٤) ديوان كعب بن زهير، ص ١٨، ١٩ .

(٥) ديوان المثقب، ص ٣٤ .

فناقته السريعة تتردد يداها بين الأرض الغليظة وصدرها في حركة سريعة متتابعة، كأنهما يدا تلك النائحة الكندية حينما تمسك بخرقتها السوداء تلوح بها حزناً على ميت تتدبه وتبكيه .

كما يلاحظ - أيضاً - التضمين الذي ورد في بيتي المثقب، حيث ذكر المشبه في البيت الأول والمشبه به في البيت الثاني، وكذلك فعل بشامة بن الغدير، واتفاق هؤلاء الشعراء الثلاثة يدل على أن التضمين لم يكن عيباً عند الشعراء بل كان فضيلة يجنحون إليها .

وتدليلاً على كثرة التضمين في الشعر الجاهلي اخترنا أربعة دواوين لإحصاء التضمين فيها وهي : ديوان زهير، وديوان بشر ابن أبي خازم، وديوان النابغة الذبياني، وديوان امرئ القيس وقد تمكنا أن نجد في ديوان زهير بن أبي سلمى حوالي أربعين تضميناً^(١) وفي ديوان بشر بن أبي خازم حوالي أربعة وثلاثين تضميناً^(٢) وفي ديوان النابغة الذبياني حوالي واحد وثلاثين تضميناً^(٣) وفي ديوان امرئ القيس حوالي أربعة عشر تضميناً^(٤) .

فهذا كله يدل على أن التضمين كان شيئاً عادياً في الشعر الجاهلي، يأتي على حسب مقتضى الحال ودواعي الكلام، وبهذا يمكن سد هذا الباب الذي استغله المتحاملون على الشعر الجاهلي نفسه، مع أن التضمين ليس شرطاً في وحدة القصيدة وتماسك أبياتها .

واعتماداً على كثرة ورود التضمين في الشعر الجاهلي أبيح لنفسي أن أخالف النقد القدامى في كراهيتهم للتضمين، بل وأذهب إلى أبعد من ذلك فأرى أن التضمين في الشعر صحيح حسن، لأنه يربط بين الأبيات ويحكم الصلة بينها، ويؤدي إلى التشويق والمتابعة لإدراك نهاية المعنى . وفي قول الجاحظ السابق دليل على هذا الحسن، إذ التضمين يؤدي إلى شدة تلاحم الأبيات حتى تبدو المجموعة منها كأنها جملة واحدة في اتصالها وتماسكها، وهذا ما حمل سيد نوفل على أن يقول في كعب بن زهير : (مظاهر الأحكام النظامي الإسراف في التضمين نحو

(١) راجع على سبيل المثال الصفحات : ٩٩، ١١٠، ١١١، ١١٧، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٨، ١٤٩، ٢٢١، ٢٣٤، ٢٣٧، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٨١، ٢٩٧، ٣٠٥، ٣٣٠، ٣٤٠، ٣٤٢، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٦٨ .

(٢) راجع على سبيل المثال الصفحات : ٥، ٨، ١٦، ٢٠، ٢١، ٢٧، ٢٨، ٤٠، ٤٥، ٤٦، ٦٧، ٧٣، ٨٢، ١٢٤، ١٢٦، ١٣٤، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٨، ١٤٩، ١٦٩، ٢٠٣، ٢٠٤ .

(٣) راجع صفحات : ١٢، ١٣، ١٤، ١٦، ١٩، ٢٢، ٢٤، ٣٣، ٣٤، ٥٠، ٥١، ٧٥، ١٠٨، ١١٨، ١١٩، ١٢١، ١٣٠، ١٣٤، ١٣٨ .

(٤) راجع على سبيل المثال الصفحات : ١٨، ٣٦، ٣٧، ٤٦، ٦٢، ٩٣، ٩٩، ١١٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥ .

قوله : كأن أوب ذراعيها إذا عرقت الخ، فهذه الأبيات فقرة واحدة يبدو فيها العمل الفنى (١) .

ومن كلام ابن رشيقي نفهم أن هناك من يستحسن التضمين من النقاد القدامى، مع استحسانه هو لخلو الشعر منه، وذلك في قوله : "ومن الناس من يستحسن الشعر مبنيا بعضه على بعض، وأنا أستحسن أن يكون كل بيت قائما بنفسه لا يحتاج إلى ما قبله أو إلى ما بعده، وما سوى ذلك فهو عندي تقصير إلا في مواضع معروفة مثل الحكايات وماشاكلها، فإن بناء اللفظ على اللفظ أجود هناك من جهة السرد (١) .

فمعنى هذا الكلام كراهية التضمين ليست أمرا مجمعا عليه من النقاد القدامى . وكلام صاحب الموشح يشعر بأن في نفسه شيئا من عيب التضمين، حيث يقول : "وأبيات امرئ القيس في وصف الليل أبيات اشتمل الإحسان عليها، ولاح الحذق فيها، وبان الطبع بها، فما فيها معاب إلا من جهة واحدة عند أمراء الكلام والحذاق بنقد الشعر وتمييزه . ولولا خوفا من ظن بعضهم إنني أغفلت ذلك ما ذكرته . والعيب قوله بعد البيت الذي ذكرته : فقلت له لما تمطى بصلبه ... ألا أيها الليل الطويل ... فلم يشرح قوله : "فقلت له" إلا في البيت الثاني، فصار مضافا إليه متعلقا به، وهذا عيب عندهم (٢) .

فلولا خوفه من اللوم ما اسا للعيب (التضمين) فكأنه لا يؤمن به في أعماقه .

(١) العمدة ٢٦١/١ .

(٢) المرزباني (الموضح) ، ٣٥ - ٣٦ ،